مصر واسرائيل. فبعد أيام من تعيينه وزيراً للدفاع، شنّت اسرائيل عدواناً واسع النطاق على قطاع غزة في الثامن والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٥٥، وضع عبدالناصر في موقف حرج أمام شعبه وقواته المسلّحة[٨]، لكن، يبدو ان أثر العدوان على غزة كان أبعد بكثير من مجرد الحرج؛ فها هو عبدالناصر يعترف، في أحد خطاباته، بأن العدوان الاسرائيلي على القطاع أدّى الى تحوّل في طريقته في التفكير تجاه الاحداث في المنطقة: «لقد بدا واضحاً لنا ان مشكلة اسرائيل ليست مشكلة محلية، كما كان يبدو الأمر، قبل الغارات على قطاع غزة. وبدا واضحاً لنا، كذلك، أننا لا نستطيع السير في معركة البناء فيما الخطر يداهم ما نبنيه ويهدّد وجودنا من أساسه[٩]. وفي خطاب آخر، قال: «لقد كان العدوان على قطاع غزة اشارة الخطر التي دفعتنا للبحث عمّا يعنيه السلام» ... [و] أن نكون دقيقين في تعريفنا للسلام وفي معنى السلام وتوازن القوى في المنطقة[١٠].

ترافق تصاعد التوتر بين مصر واسرائيل مع ضغوطات على مصر من قبل فرنسا وبريطانيا. وكان كلاهما منزعجاً من مجمل سياسات عبدالناصر المحلية والعربية والدولية. فعلى الصعيد المحلي، تُوِّج سعي عبدالناصر الى اجلاء القوات البريطانية عن مصر باتفاقية وقّعت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤. وعلى الصعيد العربي رفض عبدالناصر سياسة الاحلاف، وحارب انضمام الدول العربية الى حلف بغداد. أمّا على الصعيد الدولي، فقد نشط عبدالناصر باتجاهين احدهما يعزز الآخر، تمثّل الاتجاه الاول في تبنّي عبدالناصر سياسة «الحياد الايجابي»، وهذه عنت في الواقع العملي، تكتيل دول العالم الثالث المستقلة، حديثاً، في إطار منظمة افرو ـ آسيوية، عرفت منذ ذلك الوقت بمجموعة دول عدم الانحياز. وقد عقدت هذه المنظمة مؤتمرها الاول المعروف بمؤتمر باندونغ، في نيسان (ابريل) ١٩٥٥، بزعامة أقطاب ثلاثة هم الى جانب عبدالناصر، رئيس الوزراء الهندي، جواهر لال نهرو، والرئيس اليوغسلافي، جوزيف تيتو. وقد رمزت مشاركة تيتو الى انفتاح افرو آسيوي على المعسكر الاشتراكي. وتمثّل الاتجاه الثاني في ابتعاد عبدالناصر التدريجي الواضح عن الغرب. وتجسّد ذلك في خطوات منها: رفض عبدالناصر للدعم الاميركي المشروط، وقيامه بتأميم قناة السويس بتاريخ ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٥٦، كردّ على موقف الاميركيين الرافض تقديم العون لبناء السدّ العالي. وكان تأميم القناة بمثابة الذريعة المباشرة لشن العدوان الثلاثي على مصر في التاسع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦ حين باشرت اسرائيل عملياتها العسكرية ضد مصر، وانضمت اليها، في اليوم التالي، كل من بريطانيا وفرنسا. على ان هذه القوى الثلاث لم تكن تنتظر الذريعة لشنّ عدوان على مصر؛ ذلك ان العدوان على مصر كان تقرّر قبل عام من قيام مصر بتأميم القناة، «اذ كان بعض الاوساط الاسرائيلية يتحدث عن حرب وقائية (Preventive War) ضد مصر»[١١].

ما بعد العدوان

رسخ العدوان الثلاثي على مصر في ذهن عبدالناصر اليقين أن هناك ترابطاً عضوياً بين زرع دولة اسرائيل في قلب المنطقة العربية وبين جوهر المطامع الاستراتيجية للغرب فيها، وفي عموم العالم الثالث، الذي أصبحت مصر ترمز الى تنامي قوته ـ لا باعتباره عالماً ثالثاً، من حيث التصنيف التنموي، بل بصفته قوة عالمية ثالثة، تنزع نحو سياسات مستقلة تنبع من صميم مصالحها الوطنية. على ان عبدالناصر أدرك، بفعل تطوّر الاحداث، أن الاستقلالية هي أمر نسبي، لا يرقى الى مستوى الطموح، في عصر تسارعت فيه وتيرة تدويل الاقتصاد في العالم، ممّا استتبع تدويل ما يسمى بالاقتصاد الوطني والمصالح الوطنية أيضاً. كما ان الطبقات الاجتماعية، في مجتمع ما، لم تعد محلية بالمعنى